23 - السيدة كُبَيشَةُ بنتُ مَعْنٍ

اسمها كُبَيْشَةُ، والدها مَعْنُ بن عاصم، وزوجها أبو قيس بن الأسلت، ويُدعى: . . عامر بن جُشم. . ، أنصاريٌّ، أوسيٌّ.

كانت نساء الجاهلية تَعِشْنَ في جَوٍّ من الظلم والقهر والحرمان بحكم الأعراف والتقاليد البالية التي لا تعترف للمرأة بأبسط الحقوق، ولم يكن لكرامة المرأة عند الرجال وزنٌ ولا حسابٌ، وما لها من رأيٍ ولا طلب يُجاب، حتى حرموها من حقِّ الحياة، فقد كانت الرجل منهم إذا ولدت له أنثى يقوم بوأدها حية خشية العار، بيد أن الإسلام الحنيف نسخ هذه العادة الذميمة، ومنح المرأة كرامتها، وأشعرها بكيانها ووجودها، ومنحها من العدالة والحرية ما لم تسعه القوانين الوضعية التي ابتدعها الإنسان، فالإسلام شرعٌ ارتضاه الله العليم الخبير لخلقه، ومن أعلم بحاجاتهم أكثر ممن خلقهم؟ لا أحد! قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 14].

إسلامها وزوجها

كان أبو قيس بن الأسلت زوج السيدة كُبيشة رضي الله عنها شاعراً مُفوَّهاً، وفارساً مجيداً، وقيل: إنه كانت له صحبة، وحين أسلم وحَسُن إسلامه أخذ يدعو قومه إلى الإسلام وتصديق المصطفى ﷺ، ويقول للناس: هيا استبقوا إلى هذا الرجل.

وكان دخول أبي قيس الإسلام بعد أن حضر مجلس رسول الله ﷺ واستمع إلى حديثه العطر، فقد مكَّنه عقله الراجح في الجاهلية من مقارنة الإسلام بغيره من الشرائع، وكان دائب السؤال والاستفسار والتفكير، وهل السؤال إلَّا سبيل المعرفة؟ وهل التفكير إلاَّ طريق العلم؟.

اجتمع أبو قيس بعلماء اليهود، وراح يناقشهم في أمور دينهم، وكان

في حواره سديد المنطق، متمكِّناً مما يحاور فيه، وهذا ما أثار إعجاب أحبارهم بحسن فهمه وأسلوب نقاشه، وطريقة حواره، وإدارته للحديث.

جاء أبو قيس إلى رسول الله ﷺ وقال له: إلام تدعو؟ فذكر له النبي ﷺ مبادئ الإسلام، وفصَّل له القول في شرحها، فقال أبو قيس: ما أحسن هذا! وما أجمله!!.

ولما خرج من عنده لقيه رأس المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول فقال له: يا أبا قيس، لقد خرجت من حزبنا كل ملاذ، تارة تحالف قريشاً، وتارة تتَّبع محمداً! فقال أبو قيس: لا جَرَمَ، لأَتَّبعنَّه إلى آخر الناس.

وكان لا بُدَّ لهذا الرجل العاقل العالم من أن يُحسن اختيار شريكة حياته، ووافقت كُبَيْشَةُ هوًى في نفسه، وكانت ممن أسلمنَ وحسن إسلامها رضي الله عنها.

عطفها على زوجها وابنه

وعاش الزوجان معاً على السَّرَّاء والضَّرَّاء، في تفاهم تامٍّ، لا يكدِّره خصام، وكان أبو قيس قد تزوَّج عدة مرات ولم تثمر هذه الزيجات إلَّا عن ولدٍ وحيدٍ، وقد توفِّيت أم هذا الولد قبل أن يبلغ الحلم، فتزوَّج أبو قيس من كُبَيْشَةُ، وبعد إتمام الزواج الميمون جاء أهل زوجته السابقة يريدون أخذ الولد ليعيش بينهم، فأبى أبو قيس أن يعطيهم إياه، وأصرَّ على أن يعيش ابنه في كنفه، فوافق القوم شريطة أن تُحسن كُبَيْشَةُ امرأته الجديدة معاملته، وترعاه كما لو كان ولدها، ولما علم القوم ما يلقاه الصبي من حسن رعاية زوج أبيه له، سرُّوا بذلك، وانصرفوا ممتنِّين.

ولمس أبو قيس الرعاية الجيدة التي يلقاها ابنه من كُبَيْشَةَ فازداد لها حبّاً، وعاش الزوجان عدة سنوات، يرفلان مع الولد في أثواب السعادة، ويتقلَّبان في أحضان النعيم، وعلى حين غِرَّةٍ ألَمَّ بأبي قيسٍ مرضٌ ألزمه الرقاد في الفراش، فوقفت كُبَيْشَةُ إلى جانبه على خير ما يرام، وباتت له نعم الممرضة، ولم تألُ جهداً من أجل شفائه، وتخفيف آلامه، وظلَّت تدعو الله

obeikandl.com

وتصلي حتى يردَّ الله عليه عافيته، ولكن لا يُغني عن المريض شيءٌ إذا حان الأجل، وأزفت ساعة الرحيل.

وحين أيقن أبو قيس بالنهاية قال لزوجه كُبَيْشَةَ: أُوصيك خيراً بولدي، فهو لا يزال غضَّ العود، طريَّ الإهاب، وهو بحاجةٍ شديدة لرعايتك حتى يبلغ مبلغ الرجال، وطمأنته كُبَيْشَةُ أنها تعده ولدها، ولا تعامله إلاَّ على هذا الأساس.

ثم لم يلبث أبو قيس أن انتقل إلى جوار ربه، فحوَّلت كُبَيْشَةُ القدْر الذي كانت تَبْذُلُه في رعاية زوجها إلى ابنه، وزادت عنايتها به بعد أن أصبح لطيماً(1).

سيف الجاهلية وعاداتها يصلت عليها

وعلى الرغم من الخسارة الفادحة التي أصابت كُبَيْشَةَ بفقد زوجها المثالي أبي قيس، فإن عمق إيمانها، وحسن فهمها لإسلامها، ألزماها بالصبر، والرضا بقضاء الله وقدره.

وفيما كانت كُبَيْشَةُ وسط أحزانها، قدم عليها أهل زوجها الراحل لزيارتها فرحَّبت بهم أجمل ترحيب، فهم أهل الحبيب الراحل، وإكرامهم واجبٌ عليها، بل هو فرضٌ يمليه وفاؤها لفقيدها الغالي، بيد أن كُبَيْشَةَ ارتابت من هذه الزيارة، وساورها القلق، وحاولت أن تتفحَّصهم بنظراتها لتكتشف سبب زيارتهم، ولم يطل بها الحال حتى ظهر المكنون، وبرح الخفاء، فقد أخرجوا ثوباً أسودا كانوا يخفونه وألقوه عليها، ولكن ما معنى هذا؟ وإلى أي شيءٍ كانوا يهدفون؟.

إنها عادةٌ جاهليةٌ ذميمةٌ، وعُرْفٌ كريهٌ بغيضٌ، يعني أمرين اثنين لا ثالث لهما، ولا مفرَّ منهما لمن يموت زوجها، بعد أن يُلقي عليها أهله

(1) اليتيم: من فقد أباه، واللَّطيمُ: من فقد أبويه، والعَجِيُّ: من فقد أمه.

الثوب الأسود؛ أما أولهما: فحرمانها من ميراث زوجها، ولا حقَّ لها في تركته مهما قلَّ أو كثر؛ وثانيهما، وهو أدهى وأمرُّ، فهو: منعها من الخروج من بيت زوجها، أو الزواج إلَّا بواحدٍ من أهل زوجها.

وباختصارٍ شديدٍ كان أهل الجاهلية يرون أن المرأة من سقط المتاع لا رأي لها ولا إحساس، وما كان الإسلام ليرضى لها مثل هذا الوضع المهين! وهكذا أصبحت كُبَيْشَةُ سجينة بيتها، ورهينة داخل هذا الثوب الأسود الممقوت.

وسألت كُبَيْشَةُ نفسها: هل يرضى الدين الحنيف الذي اعتنقته، وعلمت بعدالته السمحاء، بمثل هذا الظلم الفادح الذي فُرض عليها؟ وهل يقبل ويقرُّ بعادةٍ باليةٍ غاشمةٍ كهذه؟ وهل يسمح رسول الله ﷺ لميراث الجاهلية الأولى أن يطبق في واحة الإسلام، وتحت ظلاله الوارفة؟ وهل يمكن أن تُهدر آدمية المرأة بأقسى من هذا التَّصرُّف الجائر؟.

إن الإسلام دين الكرامة والعدالة والحق، وقد جاء ليرفع الظلم والجهل والهوان، ومحال أن تحبس امرأة في ظلّه عن النكاح، أو تُزوَّج بمن لا ترغب فيه، وهي كارهة له، إذاً، ما على كُبَيْشَةَ أن تصنع في وضع خانقٍ كهذا الذي وجدت نفسها فيه؟ لقد استعانت بالصبر والصلاة كما أمرها ربها، ودعت الله أن يفرِّج كربتها، ويخرجها من محنتها، ويرحم ضعفها، ثم بدا لها أن تتوجّه إلى رسول الله ﷺ، لتشرح لها ظلامتها، وظلامة بنات جنسها اللواتي يعانين مما تعانيه، عسى أن تجد لديه الحلَّ، أو يسأل الله لها فرجاً ومخرجاً.

وقال أهل أبي قيس لابنه: اخطب امرأة أبيك وتزوَّجها، فلما خطبها، قالت له: ما كنت أعدُّك إلَّا ولدي، وأنت من صالحي أهلك، ولكن آتي رسول الله ﷺ وأستأمره فيك[1]، وهكذا تيسَّر لكُبَيْشَةَ الخروج من بيتها.

---

(1) أستأمره: أي أشاوره.

شكواها لرسول الله ﷺ

ولما دخلت على رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إن أبا قيسٍ قد هلك، وإن ابنه قيساً من خِيار قومه، وقد خطبني إلى نفسي فقلت له: ما كنت أعدُّك إلَّا ولدي، وسأسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فما أنا بالتي أسبقك، فلما سمع رسول الله ﷺ قولها، قال لها: «**اُقْعُدِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَأْتِي فِيكِ أَمْرُ اللهِ**».

وانصرفت كُبَيْشَةُ عن رسول الله ﷺ ومعها أملٌ عريض بأن الله ربها سيأتيها بالفرج لا محالة، لأنه لا يرضى بالظلم، ولا يسمح له أن يسود.

وذاع خبر لقاء كُبَيْشَةَ مع رسول الله ﷺ، ولم تكن حالتها فريدة بين نساء المدينة، فأقبلت مثيلاتها إلى النبي ﷺ فعرضنَ عليه قصصهنَّ فأجابهنَّ رسول الله ﷺ بنفس الجواب الذي قاله لكُبَيْشَةَ بنت معن فعدنَ إلى بيوتهنَّ بانتظار جواب السماء.

حكم الإسلام العادل

وما كان الله ليدعهنَّ دون أن ينزل قرآناً فيه حسمٌ لقضاياهنَّ، وقضاءٌ على عادات جائرة جاء الإسلام لنسخها، ثم جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبشرى إلى رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 19].

وتلا ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: 22].

وأرسل رسول الله ﷺ إلى كُبَيْشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وإلى أخواتها من المؤمنات اللواتي جئن يسألنه عن مثل مسألة كُبَيْشَةَ، فأخبرهنَّ بحكم الله تعالى وإنصافه لهنّ، وتحريره لهنّ من تعسُّف الجاهلية وجورها وإسرافها في ظلم المرأة

وقهرها؛ وصدق الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

أجل! أجل! إن كتاب الله وسنة رسولهﷺ المفسِّرة الموضِّحة والمبيِّنة لأحكامه وضعت للإنسان القواعد اللازمة لحياته على أساسٍ من العدل والكرامة والحرية ودفع الظلم.

رحم الله كُبَيْشَةَ المؤمنة الوفية، وأحسن نزلها، ورضي عنها.

obeikandl.com